مَساراتٌ مجْمعيَّـة

د. مروان المحاسني(*)

لقد أُنشئ مجمعُنا في منعطف مفصلي من حياة بلادنا، حين شاخت السلطنة العثمانية وهَرِمت، وانكسرت شوكتها، فأضحت فريسةً لأطماع الدول تتقاسم ما يمكن أن تَفصِله من مكوناتها عنها، ليبقى منها ما لا يمكن إدخاله في أي كيان سياسي خارج البرّ التركي.

وكان انهيار السلطنة قد سرعتْه تلك الثورات الأوربية، التي صوّرت لنفسها ثقافات مجتزأة من ثقافة أوربية كانت تدّعي الشمول تحت تسميات إمبراطوريةٍ مختلفة: فهي تارةً فرنسية، وتارة جرمانية خالصة، وتارة نمساوية متآخية مع المجر، وتارة قيصرية روسية تضم عدداً كبيراً من الثقافات الآسيوية. وهكذا فقد ظهرت ثقافةٌ صربيّة، وأخرى بلغارية، وأخرى يونانية، وأخرى ألبانية، مستندةً إلى لغاتها القومية لتحديد كيانها وانتمائها، فكانت كل منها تسعى إلى الانفصال عن السلطنة لاستعادة هويتها، واسْتَعَرت من أجلها حروب البلقان.

وحين ساهمَت الثورة العربية في إخراج بلاد العرب من الهيمنة التركية بعد الحرب العالمية، وسطعت حقيقة شمس الثقافة العربية الإسلامية تنير مجموع البلاد الناطقة بالضاد، من الخليج العربي إلى المحيط الأطلسي، لم يكن هنالك أي تساؤل

(*) رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق.

حول أحقيّة هذه المقاطعات في أن تأتلف في كيانٍ واحد، يجمعه تاريخ واحد، وتسوده ثقافة واحدة تحملها لغةٌ عريقة تستطيع التعبيرَ عن الذوات الفردية، وتوضيحَ حقيقة الانتماءات المجتمعية.

ولكن، على الرغم من هذه الحقائق الثقافية الحضارية التاريخية، فقد جرى تقسيم بلاد العرب بما يناسب أطماع ومصالح القوى المنتصرة في أول حرب عالمية في العصر الحديث، جعلها انخراط الولايات المتحدة الأمريكية فيها حرباً كونية لم يَنجُ من آثارها إلا بلاد اعتادت أن تكون في معزلٍ عما يجري في أنحاء المعمورة كاليابان وغيرها في آسيا.

وتأكيداً لتلك التفجّرات الثقافية القومية فقد كان من مهام المجمع حين إنشائه التصدي لتلك العزلة المفروضة على لغة البلاد بِفعْل رجحان لغة الغالب على مراكز الحكم وفي مجالات التعليم، وهذا ما جعل تلك اللغة المسيطرة مفتاحَ الدخول في الحداثة إذ استأثرت بكل جديد يَرد من الغرب، على حين بقيت اللغة العربية مغلقةً على نفسها، تستنشق أنفاس تلك الحداثة من خلال ما يَرشَح من التعامل مع مراكز الحكم.

لقد اعتمد المؤسسون بروز واقع سياسي جديد يتيح لهم إعادة اللغة العربية باندفاع صادق إلى مكانةٍ تليق بأصالتها وعبقريتها، وذلك حين أُعلن قيام أول دولة عربية حديثة في القرن العشرين، دولةٍ جعلت من أهدافها الأولى إعطاء الصدارة لإبراز الذاتية الثقافية العربية في حياة الدولة والمجتمع، وكان على رأس اهتماماتهم استعادة الأمجاد الفكرية التي حملتها اللغة العربية، وتعميق ارتباطها بشؤون الحياة، قبل الغوص في أعماق تراثها الحامل لفكر عبقري جعلها لغة عالمية يُستقى من نورها ما أنجزه علماؤها.

وكان أن نظر المجمع عند تأسيسه في مجموع المجالات التي تُخرج الأمة العربية من انطوائها على نفسها، بعيدةً عن حضارة مادية مَجلوبة من مجتمع دولي يتعالى على اللغات التي لا يعرفها، ولا يسعى إلى أي تواصل مع فكرٍ لم يتعرّف عظمتَه إلا أساطينُ الفلسفة والعلوم في العالم الغربي.

لم يكن هذا المسعى الهادف إلى تطوير اللغة، كي تتناغم مع معطيات الحداثة ليُعجِز المجمعيين، وهم رجال عاشوا في مجتمع لم يقبل من محتويات اللغة الدخيلة في حياته اليومية أكثر من تلك العناصر المادية التي اقتحمت حياة الأفراد، في ظل دولةٍ لغةُ دواوينها مغايرةٌ للغتهم، وهذا ما جعل ألفاظاً حكومية تنطلق على الألسنة في العلاقة بمصالح الدولة ومؤسساتها، كالطابو والكَرَكون والقوميسير، إلى جانب ألفاظ تُطلق على مجريات الحياة العامة.

لقد عقد المجمعيون العزمَ على إعادة الاعتبار إلى اللغة القومية وسيلةً قادرة على إيصال عناصر الحداثة إلى أفهام العامة والخاصة، تأكيداً لما أصبح معروفاً عن أهمية اللغة الأم مستنداً متيناً لجميع عمليات الفهم والإفهام.

ومن الأمور التي قد نستغربها اليوم أن منشورات المجمع في السنوات الأولى من إنشائه لم تتطرق فوراً إلى العلوم الحديثة المهيمنة على مقدرات الشعوب بما توفّره من وسائطَ عميقةِ الأثر في عالم السياسة والاقتصاد، كما أن المجمعيين لم يلتفتوا إلى إبراز ما قام به العرب من مشاركاتٍ جليلة في العلوم، وكيف انتقلوا، من الدراسات الفكرية التحليلية في علوم الفقه، إلى إقامة صرحٍ شامخ انطلقت منه الحقائق العلمية، التي بنَوا الوصولَ إليها على نظامٍ عقلي متين يستند إلى فلسفةٍ إغريقية هضموا عناصرها، واعتمدوا مساراتها الفكرية، حتى وصلوا إلى إنشاء علوم دقيقة تعتمد التجربةَ والتجربة المعاكسة للوصول إلى الأحكام.

لم يلتفت المجمعيون إلى تَفاخرٍ يُعيد إلى الأذهان مكانةَ ما حملته الثقافة العربية الإسلامية إلى غربٍ غارقٍ في الغيبيات، متعطشٍ إلى عقلانية بلغت أوجَها في فلسفة ابن رشد؛ إذ إنه ما إن دخلت كتلة الفلسفة العربية (ابن سينا، ابن باجة، ابن طفيل وابن رشد) في مجالات الغرب الثقافية حاملةً بحراً من المعارف العلمية المتطورة في القرن الثاني عشر الميلادي حتى أضحت الثقافةُ العربية الإسلامية منارةً يُهتدى بها طيلة قرون عديدة، حتى عصر التنوير.

بل إنهم التفتوا إلى حقائقَ حضاريةٍ واضحة المعالم جعلتهم يوجهون اهتمامهم إلى عِلْمَين اعتبروهما عاملين أساسيين في بناء مجتمع جديد، وهما الطب والزراعة، وهذا ما جعلهم يؤثرون سدّ حاجةٍ ملحّة هي توفير المصطلحات العربية اللازمة لكل منهما في تلك البرهة الزمنية.

إن تأسيس معهد طبي يدرّس جميع التخصصات الطبية باللغة العربية أمرٌ يحُثّ على توفير مصطلحات العلوم الأساسية التي يُبنى عليها تعليم الطب، كالتشريح ووظائف الأعضاء والجراثيم والطفيليات والفيزياء والكيمياء.

ولذا فقد انبرى أساتذة الطب، ومعظمهم مجمعيون، ينتجون مصطلحات أسسوها على قواعدَ لغوية تجعلها مُستساغةً في الاستعمال، تَدخل الأذهان لتستقرّ فيها جزءاً من سليقة علمية مُكتَسبة، كمُقابلات لمصطلحات أجنبية لا يُدرك الطالب العربي معاني الأجزاء المركّبة لها.

وهكذا فقد أورثتنا هذه المجهودات المتميزة ثروةً من المصطلحات العربية في مختلف المجالات الطبية، انطلاقاً من تشريح جسم الإنسان إلى توصيف ما بين أجزائه من علاقات، وقد استخلصوا معظم هذه التسميات من أعمال ابن سينا

وابن النفيس والزهراوي وغيرهم، كما أنهم أتمّوا توصيف وظائف الأجهزة المركَّبة كالهضمية والعصبية، مقترحين لشرح تلك العلوم الجديدة ألفاظاً عربيةَ الجَرْس والبناء، معتمدين ما تتيحه طواعيةُ اللغة العربية في جميع المجالات. إنها جهود متداخلة لتحديد التغيّرات المَرَضية في الأبدان وتعيين مسبباتها، وإطلاق الأسماء الدقيقة على العوامل المُمرضة من جراثيم وطفيليات تعكّر صفوَ حياة البشر.

ومن أساتذة كلية الطب من كان تعلّم الطب باللغة التركية في المدرسة الطبية التي أنشأها العثمانيون في دمشق (١٩٠١) ثم نقلوها إلى بيروت، لتعود إلى دمشق بعد إعلان الحرب العالمية الأولى (١٩١٤)، وكان أساتذتهم فيها على صلةٍ وثيقة بالطب الأوربي والفرنسي بخاصة.

وهذا ما جعل مجهوداتهم، مجمعيين وغير مجمعيين، تَصدُر عن معرفة حقيقية لمعاني المصطلحات، تُسهّل لهم الوصول إلى مقابلات عربية لها، وهم أصحاب لغةٍ لم يهجروها، وهذا ما أتاح لهم إيصالَ طلابهم إلى دِقّة عالية في التمييز بين مصطلحات مشتركةٍ اعتمدها كلّ علم ليُضفي عليها مسحةً تميّزها عن استعمالاتٍ لها في علوم أخرى.

ومن النشاطات التي لا يمكن إخراجها عن السيل المعرفي الذي أطلقه المجمع في هذا المضمار، صدورُ معجم طبي حديث هو معجم (كليرفيل) الكثير اللغات، الذي تُرجم عن الفرنسية عام ١٩٥٦ على أيدي واضعي تلك الثروة المصطلحية المستعملة في التدريس، وهم أساطين العلوم الطبية في سورية: الأستاذ مرشد خاطر والأستاذ أحمد حمدي الخياط والأستاذ صلاح الدين الكواكبي. إنه عمل متميز أدى خدماتٍ جلّى للطلاب وللأطباء في متابعتهم للتطور الطبي العالمي. وقد تصدّى

لمناقشة ما فيه من مصطلحات الأستاذ حسني سبح رئيس المجمع، في سلسلة من المقالات الناقدة نشرتها مجلة المجمع تباعاً طيلة مدة تجاوزت العشرين عاماً ابتداء من ١٩٥٩ حتى ١٩٨٢، أي من المجلد الرابع والثلاثين إلى المجلد السابع والخمسين، بمعدل مقالتين أو ثلاث مقالات في كل مجلد.

ثم كان أن انضم الدكتور حسني سبح إلى لجنة أطلقها اتحاد الأطباء العرب لصناعة معجم طبي يوحّد المقابلات العربية للمصطلحات الطبية الفرنسية والإنكليزية في جميع الوطن العربي، فكان الدكتور سبح يرأس لجنة كان لي شرف المشاركة في تأسيسها وهي تضم ممثلين عن سورية ومصر والعراق ولبنان وذلك في أواخر ستينيات القرن الماضي، ثم انضم إليها في السبعينيات ممثلون عن تونس والجزائر والمغرب.

وقد تطور هذا المعجم الموحّد بعد أن تولّت منظمة الصحة العالمية (منطقة المتوسط) الإشرافَ على إتمامه ونشره، حتى أصبح اليوم، وهو يحتوي على مئة وخمسين ألف مصطلح (الطبعة الرابعة ٢٠٠٧)، مرجعاً عالميّاً معتمَداً لجميع المصطلحات العلمية المرتبطة بشكل أو بآخر بالمصطلحات الطبية الدقيقة مع مقابلاتها الفرنسية والإنكليزية.

وأما العلم الثاني الذي أخذ موقع الصدارة بين منشورات المجمع بعد تأسيسه فهو علم الزراعة الذي كانت تحتاجه سورية، وهي التي اشتهرت منتجاتها الزراعية الصادرة عن غوطتها الدمشقية، أو عن سهول حوران، أو بساتين العاصي أو أرياف وادي بردى. إنه علم يهدف إلى الانتقال بالبلاد من ممارسات زراعية تراثية إلى ممارسات متجددة تستفيد من العلوم الحديثة التي تفتح الأبواب واسعةً أمام حماية المنتجات، والارتقاء بالمحاصيل إلى مستويات متميزة.

وقد كان للأمير مصطفى الشهابي رئيس المجمع فضل كبير في تصنيف معجمه الزراعي الذي بقي حتى يومنا هذا نموذجاً يُحتذى في دقته المعجمية وعبقريته التصنيفية، محمولاً على طاقات عميقة الجذور في لغتنا العربية، وقد جُمِع فيه الكثير من المسميات الواردة في كتب الزراعة التراثية. والأمير الشهابي من خريجي أرقى مدرسة زراعية أوربية هي مدرسة غرينيون في فرنسا.

وأما النشاط المجمعي في المجالات اللغوية فقد كان واضحاً في مجلة المجمع المؤسسة عام ١٩٢١ التي كانت مساهماتُ الأعضاء النسبةَ الكبرى مما نشر فيها. هذا إضافةً إلى نشر كتبٍ تراثية أتـمّوا تحقيقها، كجامع التواريخ للتنوخي، ورسالة الملائكة للمعري، وديوان الوليد بن يزيد، وأخبار الأصمعي، والتبصر بالتجارة للجاحظ. هذا إلى جانب مؤلفات رأوا إحياء الاهتمام بها لأنها دراسات هامة في التمييز بين العامي والفصيح، كبحر العوّام لابن الحنبلي وتكملة الإصلاح للجواليقي، إذ كان من الضروري في تلك المرحلة الوقوفُ في وجه انتشار العامية كي لا تصبح مُعتمَدَةً على حساب اللغة الفصيحة، بعد ذلك العهد الطويل من تهميشٍ أصاب اللغة العربية في بلادنا.

وقد سار مجمعنا على خُطا المؤسسين في انتقاء عدد من الكتب التراثية التي تستحق تحقيقاً جديداً بعد أن أصبحت غائبة عن المكتبات ليساعد إعادةُ انتشارها على التعمّق في معرفة هذا التراث المتعدد الوجوه، والحاوي لِكنوز فكرية ولفظية وتحليلية تُعيد إلى الأذهان حقائقَ يحاول الكثيرون تجاوزها في هروَلَتهم نحو الحداثة.

ومن هذه المنشورات في السنوات العشر الأخيرة ديوان أبي النجم العجلي وديوان ابن سنان الخفاجي وديوان نجم الدين بن سوار الدمشقي وأخبار شعراء حمير، وهي كتب قد أفاد من نشرها عدد غير قليل من طلاب الدراسات العليا لتحضير البحوث المطلوبة للحصول على الماجستير والدكتوراه.

هذا إلى جانب كتب راسخة الجذور في أعماق فهم اللغة العربية وتذليل بعض الصعاب التي جعلت أعداء العربية يتهمونها بالتعقيد، ومنها ما تُستساغ طرافته في زمان يميل فيه الكُتّاب إلى إهمال القوالب اللغوية الرصينة، ليلجؤوا إلى اقتراضات مُبسَّطة من ثقافات أجنبية. فقد طُبع استدراك الغلط الواقع في كتاب العين للزبيدي، والدر النثير والعذب النمير للمالقي، والمقصور والممدود لابن ولاّد، ومختصر تاج المجامع والمعاجم للقوصي، وقد لقيت جميعها قبولاً حسناً لدى المهتمين باللغة العربية وتطورها.

ويبقى تاريخ دمشق لابن عساكر شهاباً متألقاً ما زال مجمعنا يتابع تحقيقه ونشر مجلداته، وما زال أمامنا عدد غير قليل من المجلدات يجري تحقيقها ونشرها تباعاً بعد أن جرى تحقيقها من قبل أفضل المحققين، نظراً لما لهذا المؤلَّف التاريخي النفيس من قيمة تراثية. وقد أنجز مجمعنا نشر ستين مجلداً منه ولم يبق سوى عشرة مجلدات نأمل إتمام العمل فيها عام ٢٠١٥.

إن هذه النظرة إلى الحقائق المجمعية في السنوات الأولى من إنشاء المجمع تُعيننا على تفهّم المصاعب المُحيقة بنا في الألفية الثالثة. فنحن اليوم في مواجهة صادِمة مع علومٍ حديثةِ النشأة، قد دخلت في مسارات تفصيلية متسارعة في تطورها، تَنشقُّ عنها علومٌ فرعية تتطور إلى تخصصات أدقّ فأدقّ، منتجةً بحراً زاخراً بالمصطلحات الخاصة بكل فرع، نَجهد في إيجاد المقابلات العربية لها قبل أن تُدخَل بعجمتها في التداول، مفروضةً على الأَفهام في سياق جُملٍ عربية نقيّة تَبرُز فيها ناشزةً مُستهجَنة.

إنها علوم قديمة حديثة كالكيمياء والرياضيات والفيزياء، ما زالت مرتكزاً أصيلاً لا تستغني عنه العلوم الحديثة المتطورة، ولو أنها بلغت في أيامنا مستوياتٍ غير

مسبوقة في عالم الذرة والجزيئات، إلى جانب عالم الجينات وما يضمُّه من مركَّبات لها دور أساسي في مسار الحياة على وجه الأرض. يضاف إلى ذلك أن هذه العلوم التي ما زالت في مسارٍ متسارع في مسعاها لسَبْر خفايا هذا الكون، ما فتئت تفرز تقانات جديدةً، ومفهومات آخذةً في التفصيل، وهذا ما يجعل متابعة ما تُنشئه من مصطلحات عملاً دائباً لا كلالَ فيه، يحتاج إلى خدمة متواصلة، تُتابع إدخال جديدِه إلى اللغة العربية. وقد أَلَّفْنا لجاناً مختصة بتلك العلوم الحديثة، كالمعلوماتية والاتصالات.

ومن الأمور التي تكاد تكون خاصةً بمجمعنا في مجالات العلوم، ما شعرنا به من اختلال في تحديد المصطلحات المعتمدة لتدريس العلوم في الجامعات السورية، وهي الجامعات العربية الوحيدة التي التزمت تدريس جميع المواد باللغة العربية. فقد تبيّن لنا ظهور اختلاف بين ما يعتمده الأساتذة من مصطلحات، إذ إنها تتأثر بمشاربهم الثقافية حسب البلاد التي حصلوا على الاختصاص منها، فقد ظَهَرَ وجود فروق هامة بين من يستقي تطورَه العلمي من خلفية ألمانية، ومَن استقاه من خلفية روسية، مع وجود هذا الاختلاف بين الاستعمال الإنكليزي والاستعمال الأمريكي للمصطلحات.

وهذا ما جَعلَنا نؤلِّف لجاناً خاصة لتوحيد المصطلحات المتداولة في الجامعات السورية في جميع التخصصات العلمية (لجنة لكلٍّ من الفيزياء، والكيمياء، والرياضيات، وعلم الحيوان وعلم النبات، والزراعة وعلوم الأرض) حتى نصل إلى توحيدٍ يُقرّه مجمعنا في مؤتمراته، ويقدّمه إلى وزارة التعليم العالي للإصرار على الالتزام به في التأليف والتدريس. هذا إضافةً إلى تأليف لجان جديدة تهتم بفروع آخذة في النمو حتى أصبحت ملازمة لحياتنا اليومية، كالعلوم المرتبطة بالحفاظ على البيئة، أو

علـوم المعلوماتيـة وتقاناتهـا التـي تكـوِّن أساسـاً لا يُسـتغنى عنـه في جميـع المجـالات البحثية، وقد أضفنا أخيراً لجنةً تنظر في التطورات الجديدة في طب الأسنان التقويمي، وما ظهر فيه من جَهائز صناعية تُعيد إلى الإنسان الراحة في انتقاء طعامه، ولجنةً أخرى تختصّ بالاستشعار عن بعد نظراً لما يمثله هذا العلم باعتماده تقانات حديثة متطورة.

ونظراً لضـرورة الاهتمام بالشؤون اللغوية البحتة والعودة إلى ما تختزنه المعـاجم التراثية فقد أُلِّفت لجنة تهـتم بصـناعة معجـم يشـرح معـانيَ أبنيـة ألفـاظ اللغـة العربيـة أفعـالاً وأسـماء، وهـو عمـل يطمـح إلى احتـواء معظـم مـا في تلـك المعـاجم مـن أبنيـة، مصـنفةً في مجموعـات ومجـالات: هيئـة الإنسـان، الطبيعـة والحيـاة، المشـاعر، الخيـال، وغيرها. إنه معجم قد يكون رديفاً مكمِّلاً لمشـروع المعجم التاريخي الذي اختص منه مجمعنا بدراسة نصوص منتقاة من العهد الأموي، على حين تقوم المجامع الأخرى بما خصها به اتحاد المجامع الذي سيتولّى إصدار ذلك المعجم التاريخي للغة العربية.

وهنـاك مضـمار ملـحّ اهتمـت بـه لجنـةٌ لألفـاظ الحضـارة تقـوم حاليّـاً بإصـدار معجمها الأول، وهو يتضمن ألفاظاً موزَّعة على مجالات مختلفـة: السـياحة، النقـل، السَـكَن ونحوهـا، وهـي تقـترح مقـابلات عربيـة مطلوبـة لألفـاظ أعجميـة جمَّـدها الاستعمال مع بقائها أعجمية. ويجب أن نضـيف إلى هذه النشاطات اللغوية البحتـة، التي أنشئت لها لجان خاصة بها، أمراً جعله مجمعنا في طليعـة اهتماماتـه اليوميـة، هـو اعتمادُ مرصدٍ لغوي يقـوم بكشـف مـا يـرد في لغـة الصـحافة والتلفـزة والإذاعـة مـن مفردات أو تراكيب تحتاج إلى دراسة لكشـف صُـدورها عـن تراكيـبَ أجنبيـة قُلبـت عربيةً دون تأصـيلها في اللغة، ليمكن تصحيحها أو الموافقة عليها بقرار مـن المجمـع يجيز استعمالها، بصفته المرجعية العليا للغة العربية كما ورد في قانونه.

وبعد أن تم ترميم المكتبة الظاهرية، وتمت فهرسة محتوياتها على تصنيف عالمي يسمح بالإفادة من كنوزها، اتجهنا إلى إدراج فهارسها في برنامج حاسوبي يمكن ربطه ببرامج المكتبات العالمية.

وقد التفت مجمعنا كذلك إلى ما لديه من مخطوطات تراثية فطلب من المتخصصين في العناية بالمخطوطات أن يدرّبوا العاملين في المجمع على صيانة المخطوطات وتصويرها والإشراف على أفضل الطرق لحفظها.

ومن جهة أخرى فقد ضاقت مساحات بناء المجمع الحالي عن الوفاء باحتياجاته في التوسع ولذا سعينا إلى الحصول على مبانٍ جديدة، آملين أن يدخل في حوزة مجمعنا أحدُ البيوت الدمشقية التراثية (بيت القوتلي في باب البريد) وهو مجاور للظاهرية. وقد وُفّقتْ جهودنا، والنية معقودة على ضمّ ذلك البيت بعد ترميمه إلى أرض غير مسكونة يملكها المجمع، وهي ملاصقة للظاهرية، ليتشكّل من تلك المجموعة صرحٌ ثقافي كبير في قلب مدينة دمشق.

وأخيراً لا بد لنا من القول إننا في مسعانا إلى السير على ما اختطه لنا مؤسسو مجمعنا يجب علينا إيضاح ما نكابده من معوقات تميّزت بها أيامنا.

فلقد وصلت اللغة العربية في بلادنا إلى عطالة مُتدرّجة قد تؤدي إلى انكماشها مبتعدةً عن التطور المطلوب لإعادتها عماداً لحياتنا.

فإن لغتنا اليوم تسودها تراكمات معطِّلةٌ لانفتاحها على المعاصرة محمولةً على حماسة النابهين من أبنائها ، الساعين وراء بقائها مرتكزاً أصيلاً لهويتنا، وكنزاً ثميناً نغترف منه طاقات خلّاقة تفتح لنا أبواب المستقبل.

ولنا أن نميز بين هذه التراكمات المُعطِّلة:

١- لهجات قطرية مُتفاصحة تريد ترسيخ وجودِها مرتكزاً ثقافيّاً كافياً لاستيعاب المعاصرة بما فيها من تشعُّبات.

٢- تعريبات بَلْهاء لعناصر الحداثة الفكرية والعلمية والمجتمعية تكتفي بنقل الكلمة من حروفها الأعجمية إلى حروف عربية تقريبية، محتفظةً بتراكيبها اللفظية الأعجمية التي تحول دون تطابقها مع سلاسة النطق في النظام اللغوي العربي.

٣- استسهالٌ حداثي قد غلب على شبابنا فإذا بهم يتحادثون بلغة عربية هجينة تُعطى فيها للكلمات الأجنبية تصريفات النظام اللغوي العربي وهي باقية على عجمتها فتبقى ناشزةً عسيرة على الفهم.

إنها موجات غامرة تسلّطت على لغتنا منطلقةً من حضارات غربية تنتج علوماً وتقانات لم نعهدها في بلادنا ولم نساهم في تطويرها، فدخلت أفكارَنا بطابعها الغريب الذي عجز ضعفُنا اللغوي عن ربطه بمقابل لغوي مناسب نَسْتخلصه من تراثنا الممتد على قرون، كان قد استوعب فيها أجدادُنا أهمَّ منجزات الغرب التي وصلت إليهم، فأطلقوا عليها التسميات المناسبة، وأدخلوها في رصيدهم اللغوي حين ألفّوا الكتب التي حملت إلى العالم مساهماتهم الكبرى في تطوير الفكر الفلسفي والعلمي.

مشكلتنا اليوم ليست عضويةً ترتبط بضعف اللغة العربية عن الوصول إلى الحداثة، بل إنها قطيعةٌ وجدانية:

- بين تراث باهر بناه أهل اللغة بعد أن تعمّقوا في فقهها، وفهموا نظامها، وقاموا بشرحه حتى استقرّ في جيلهم مَلَكةً يُسارع النشء الجديد إلى تغذيتها بملازمة العلماء، والمجالسِ التي تشهد على إتقان الإفادة مما تتميز به لغتهم من منعطفات وثَنْيات، ليمكن للعقول النابهة أن تفهم عالمها وتنظر إلى مستقبلها بالاستناد إلى لغتها.

- وبين جيل مبهور بحداثة قلبت أوضاعه المعاشية بما قدمته من أعاجيب علمية تَحمِلها لغات أخذت لنفسها موقعاً كونيّاً، وهي تُطلق نظرات جديدةً على العالم وتصورات خلّابةً لعالم الغد تُغري بها أبناء هذا الجيل أن يلتحقوا بتلك اللغات متذرّعين بضعف لغتهم القومية.

إنها حالة راهنة نحاول أن نفكّك العناصر المكوّنة لها لعلّنا نصل إلى مسار يعيد إلى لغتنا مكانتها في نفوسنا، ويصونها من محاولات ماكرة لتهميشها في عالم سريع التطور.

فإذا كان المؤسسون قد التفتوا إلى كتب الجواليقي وابن الحنبلي الساعية إلى تفصيح العامية، بقصد التوسّع في ألفاظ أُلبِسَتْ دلالات جديدة بما يساعد على الانفتاح في اللغة، فنحن اليوم نواجه تشويهاً حقيقيّاً للغتنا يسود التواصل بين الأفراد على اختلاف مستوياتهم الثقافية.

فإذا نظرنا إلى انحسار دور القراءة مصدراً للمعرفة، وزاداً يختزنه الأفراد ليكون منطلقاً لتبادل فكري أو شخصي فيما بينهم في مجتمع تسوده لغةٌ واحدة، رأينا وسائل التواصل الاجتماعي الحديثة تحدّ ما يتمتع به الأفراد من طلاقة واسترسال في الحديث، فارضةً أعداداً معينة من الحروف فيما يسمى تغريدات، وصيغاً مضغوطة لما يجري تبادله في رسائلَ قصيرة، وهي تخلو من كل فكاهة وكل طابع شعوري تستطيع اللغة التعبير عنه حين يُطلق لها العنان.

وإن ما أدخله هذا الانفلات من أهمّ الضوابط الجمالية في النظام اللغوي للعربية، متجاهلاً ما تتميز به لغتنا من سلاسةٍ وانسياب مضافاً إلى دقةٍ في التعبير،

وهي عناصر كانت تعيد إلى أذهاننا قراءات أدبية وأوزاناً شعرية نترنّم بسحرها، هذا الانفلات ينتهي إلى إظهار لغة هجينة مختلطة زال عنها ما يُزيّن لغتنا من بلاغة ومجاز، وما نتمتّع به من طلاوتها، ونستسيغه من جرْسِ ألفاظها المنتقاة.

وإذا أضفنا ما ظهر في أغانينا من كلام لاهث متقطّع لا تجانسَ فيه هو «الراب Rap»، أي تلك الموسيقا الارتجالية اللاهثة التي تغلب عليها الطبول، ولا يلتقط منها سامعها سوى ضجيجٍ يدّعي أنه كُلٌّ موزون، وذلك هروباً من ضوابط الشعر، وحتى من أخف الشعر الذي انطلق أصلاً من الأندلس، ألا وهو الزَجَل الذي مازال فنّاً تُقام له المهرجانات في لبنان المجاور.

فأين نحن اليوم من ذلك الاندفاع الوجداني الجارف الذي غمر البلاد وأدخل الأفراد في نشوة حقيقية تربطهم بكل ما له علاقة بلغتهم، يوم خرجت سورية من الحكم العثماني وأُعلن استقلالها دولةً عربيةَ الكيان عربيةَ اللسان، فظهرت الأناشيد الوطنية التي تقدّس الانتماء إلى وطن استعاد حرية التفاخر بأمةٍ عربية، عمادُ كيانها لغةٌ عربية حاملةٌ لأمجاد فكرية، تهتز المشاعر لسماع شعرها، وتخفق الأفئدة متجاوبة مع كل نداء لإعلاء شأنها بين الأمم. لقد استعاد الشعب لغته فأقْبلَ على تعلّمها، وأكْبرَ هِمّةَ أصحابِ الكتاتيب الذين حفظوها وأحسنوا تلقينَها للأطفال جيلاً بعد جيل، كما أدخلوا في نفوسهم احتراماً حقيقيّاً لها ما دامت معتَمداً لمستقبلهم في أي نشاط علمي أرادوا اتخاذه وسيلة لبناء شخصيتهم، ولذا فقد التفّ أفراد الشعب حول أول مجمع للغة العربية في بلاد العرب، فحضروا محاضراته واقتنَوا كتبه وأطاعوا توصياته فيما يخدم لغتهم القومية وأنشؤوا المنتديات يتذاكرون في أدبهم التليد فيها.

إننا أمّة تختلف كل الاختلاف عن الأقوام البدائية التي لا تاريخ لها، وتعيش حياةً ليست سوى حاضر ينساب، على حين نحن نعيش في «عالمٍ تاريخي له مستقبل قد تم تحقيق جزء منه (هو الماضي الوطني) وبقي الجزء الآخر (المستقبل) يسير تحقيقُه بمرور الزمن» كما يقول ليفي برول(*).

فتاريخنا مطبوع بلغتنا كما وصلت إلينا محمولةً على شعر جاهلي سيطرت هيكليته على حِسِّنا اللغوي، مستقرّةً في الصيغ الخالدة التي أنزلت في القرآن الكريم، ثم بقيت تستقبل الروافدَ من الأحداث، ومن الدفعات الفكرية المتعاقبة التي حملت إليها أصداءَ وحقائقَ حضارات كبيرة غارقة في القدم. إنها اللغة ذاتها التي تشبّعت بما استنبطه علماؤها حتى أنتجت الحضارة العربية الإسلامية، وما زالت تتكامل في تطابقها مع الأحداث؛ لتكون قادرة على وضع الأسس التي يُبنى عليها التوجّه نحو المستقبل. فإنه لا يَصحُّ النظر إلى اللغة بأنه يمكن تحديد العناصر المكونة لها، إذ إن جَمْع هذه العناصر لا يوصلنا إلى لغة متكاملة، كما يقول جان بياجه J. Piaget ذلك لأن اللغة هي كجهاز فكري تجتمع فيه مكوِّنات مختلفة تشكّل لحمتَه وتحتوي على مجموعة من الانزياحات اللغوية إلى جانب ما فيها من ثوابت، وهي التي أوصلتها إلى مفهوميتها. لقد صمدت لغتنا في وجه نوائب الدهر وتجاوزت ما حلّ بأهلها من صروف وهزائم، وبقيت شجرة باسِقةً تُنبت فروعاً مثمرة في العلوم والفلسفة والفكر الإنساني، حاملةً لثقافة باهرة كان لها دويّ عالمي أنارَ عقولَ أجيالٍ متعاقبة في بقاع الأرض، عند أقوامٍ كانت غارقةً في جاهليات مختلفة، فكانت دافعةً لها في مسيرتها نحو التحضر.

(*) La mythologie Primitive, Levy-Bruhl 1935.

إن لغتنا اليوم تحيط بها المخاطر من كل حدب وصوب، تلك التي تنطلق من غزو ثقافي مبرمج، مخترقةً وسائلَ إعلامية مستسلمةٍ لزحف غادر من ألفاظِ التقانات والعلوم الحديثة، لتصل إلى نفوس عربية أسرتْها «الصرعات» الغربية، فانضوت تحت لوائها منسلخة عن ذاتيتها الثقافية بذريعة تخلّف اللغة القومية الحاملة للهوية عن اللحاق بالحداثة.

إن هنالك خللاً يسيطر على التعبير في الحياة العامة حين يلجأ الأفراد ومعظمهم من الشباب إلى إدخال ألفاظٍ وتراكيبَ يستعيرونها من لغات أخرى ويفرضونها على المتلقّي الذي يَحارُ في فهمها.

وهذا الخلل يتجاهل حقائق أثبتتها العلوم الحديثة؛ فليس الكلام سوى ما يُطلِقُه الوعي لتجسيد معطيات الفكر، بأسلوب يختلف بين قوم وقوم آخر، بأشكال يختص كل مجتمع بفهم إشاراتها الحاملة للمعنى، ولولا وجود الكلام لبقيت الأفكار حبيسةً لا يمكن جعلها وسيلة للتواصل البشري؛ فكيف يصل المتلقي العربي إلى تفهم أشياء لا تُربط إشاراتها بنظامه اللغوي؟

إن إقحام ألفاظ غريبة لا يتطابق النطق بها مع جرْس ألفاظ اللغة العربية، وهي التي تتميز بنظام اشتقاقي تشير كل لفظة فيه إلى جذر حاملٍ لمعنى أصلي، يُدخل المتلقي في حَيرة تُربك فهمه للمقصود. فهو قد اعتاد إرجاع كل لفظ إلى مجال من المجالات التراثية حسب بنائه بما يشير إلى ذات معيّنة، أو يشير إلى فعل واضح المعالم أو إلى حقائقَ حياتية. وكلها أمور يستحضرها المتلقي من مخزونه الثقافي.

ذلك أن النمط الفكري الذي يعتمده الفرد في تعبيره يوصل المعنى المقصود محمولاً على طاقة لغوية تتولى تنسيقَ هيكلية الكلام المنطوق بالاستناد إلى الموروث اللغوي السائد في مجتمعه.

فكيف يمكن للمتلقي أن يفهم ما يقوله صديقه حين يسمعه يقول بأنه (فَلَّلَ) خزّان سيارته وهي (مُفَيّمة) «زجاج نوافذها مُعْتِم» أو أنه ذهب (ليشرّج) هاتفه المحمول أي يشحنه بالكهرباء، إلى آخر ما هنالك من «صرعات» تُهين لغةً مازالت هي مفتاح فهمنا للعالم حتى حين نعبّر عن أنفسنا بلغة أخرى.

صحيح أن لغتنا تواجه ضغوطاً متعددة المصادر في عصر تتسارع فيه الكشوفات التي تُظهر تقاناتٍ متتابعةً تحتاج إلى ألفاظ جديدة. وحقيقةُ الأمر أنه لا يجوز لنا القول بأن لغتنا اكتملت وذلك في نظرة ماضوية لا تأخذ بالاعتبار تطورات الفكر الحديث، الذي ينشئ في كل يوم ألفاظاً وتعبيرات تحمل معانيَ جديدة وحقائق لا تناقش. بل لا بد من تأكيد حاجتنا إلى توطين العلوم في لغتنا رافضين لأي قطيعة معرفية بين لغة الحاضر ولغة الماضي. إنه العمل المطلوب بكل إلحاح لنصل إلى ترسيخ تلك المنطلقات العلمية في أذهان الأجيال الجديدة بعد توضيح معالمها، لتنضمّ إلى مخزونهم الثقافي الذي كان قد استوعب ترسّبات لغوية هامة ربطته بالفكر العالمي حتى تمكن من فرض نفسه على تطور العلوم بعد ذلك.

الخاتمة

إن تكاثف الغيوم على منطقتنا العربية، محمّلَةً بالرعود والشرر، لن يُحِيْدَنا عن التمسك بثقافتنا المجيدة، ولن يجعلنا نتعلّق بأهداب عولمة هدّامة تحاول إدخال الشكوك إلى نفوسنا، مستخفّةً بقيمة لغتنا العريقة وتَمَيُّزِها بصفات تجعلها أغنى لغات الأرض، وهذا ما يتيح للعولمة فرصاً للقضاء على شخصيتنا.

إن لغتنا يحكمها منطق متماسك، ومن ينظر إلى تاريخها وما فيه من وحدة في

التعبير دون التباس في معاني الألفاظ متى كان سبكها متقناً ضمن مسار السياق، يرى قوةً لغوية نادرة المثال يُهيكلها نظام لغوي تجاوز حدثان الزمان، وتضمَّن عناصر لغوية اختلفت معانيها ولكنها وصلت إلينا موحّدة في موقعها بين الماضي والمستقبل.

نحن في مسار حضاري يتطلب تفتحاً يخرجنا من شمولية العولمة، لنبقى قادرين على بناء شخصية عربية كاملة المعاصرة. وهذا يتطلب تطويرَ فَهمنا لحضارتنا، بإصرارنا على فهمنا للغتنا، لا بوصفها وسيلةً للتعبير اليومي الحياتي فحسب، بل بوصفها مخزوناً ثقافيّاً مطبوعاً بمؤثرات تعاقبت عبر العصور وأوصلت إلينا ما يشير إلى هذه المؤثرات. وهذا يؤكد لنا ضرورة إتمام تطوير لغتنا مستفيدين من المؤثرات الحداثية.

وإن الجهود المجمعية، على تشعّبها وتفاوت قدراتها في زمان بدأ طغيان الاستسهال والتهاون يعطّل نجاعتها، عليها أن تبقى ثابتة في إصرارها على حفظ مكانة اللغة في نفوس أبنائها، حتى تبقى المجامع عنصراً مركزيّاً في التدقيق فيما يظهر من مصطلحات، وهي قادرة على الإسراع في إنتاجها متساوقةً مع الحداثة، متجاوبةً لضغوط تنثرها العولمة الصاخبة محاولةً إشعار المجتمعات بدونيَّتها.

أملنا أن يعود مجتمعنا إلى وعيه الحضاري بعد انقشاع ما أحاط ببلادنا من غُمّة سابغة بدأت تنخر في العلاقات بين الأفراد تشكيكاً بانتمائهم، وأن يرجع الأفراد إلى ثقافتهم الأثيلة ليعودوا إلى الانغماس في ذاتيتهم الثقافية التي تمثل تطلّعات لا يمكن التعبير عنها بصدق إلا باللغة الأم.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁